



- أقدار الله الكونية وشرائعه قائمة على الحكمه والتعليق، سواء علمناها أو لم نعلمنها، فلا يقال: إن من الشرائع ما له علة، ومنها ما هو تعبد لا علة له.

ومحاسن الصيام وأسراره لا تكاد تحصى، لكن نقتصر على بعض العبارات لابن القيم في هذا الشأن، حيث يقول: «أما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النafs عن شهواتها، وترجحها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين.. فإذا كفت شهواتها لله ضيقـت مجريـ الشياطين، وصارت قريبة من الله بترك عادتها وشهوتها، محبـة له، وإثـاراً لمرضـاته، وتقرـباً إليه»، إلى أن قال: «وأـي حـسن يـزيد عـلى حـسن هـذه العـبـادـة الـتـي تـكـسـر الشـهـوـة، وـتـقـمـع النـفـس، وـتـحـيـي الـقـلـب وـتـفـرـحـه، وـتـزـهـدـه في الدـنـيـا وـشـهـوـاتـها، وـتـرـغـبـ فيـمـا عـنـد اللهـ!».

- إن حـكـمة الصـيـام جاءـت منـصـوصـاً عـلـيـها فـي قـوـلـه تعـالـى: {يـا أـيـهـا الـذـيـنـ آمـنـوا كـتـبـ عـلـيـكـمـ الصـيـامـ كـمـا كـتـبـ عـلـى الـذـيـنـ مـنـ قـبـلـكـمـ لـعـلـكـمـ تـنـقـونـ} [البـرـةـ: 183].

«فالصـيـام يـحـقـق التـقـوى، وـهـوـ الـعـلـم بـطـاعـة اللهـ إـيمـانـاً وـاحـتسـابـاً، فـهـوـ يـصـوم رـمـضـانـ، عـلـى نـورـ منـ اللهـ، يـرـجـو ثـوابـ اللهـ؛ فـالـتـقـوى تـجـمـع أـصـلـيـنـ، أحـدـهـماـ: أـنـ الصـيـامـ باـعـثـهـ الإـيمـانـ الـمـحـضـ وـلـيـسـ الـعـادـةـ أوـ الـهـوـيـ. وـالـآخـرـ: أـنـ الصـيـامـ غـاـيـةـ الـاحـتسـابـ، فـهـوـ يـصـومـ رـاجـياـً ثـوابـ اللهـ».

ولـذـاـ، يـكـثـرـ اـقـتـرـانـ الإـيمـانـ بـالـاحـتسـابـ فـيـ غـيـرـ حـدـيـثـ، كـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: «مـنـ صـامـ رـمـضـانـ إـيمـانـاً وـاحـتسـابـاً غـفـرـ لـهـ مـاـ تـقـدـمـ مـنـ ذـنـبـهـ».

- إن الصـيـامـ يـحـرـكـ الإـخـلـاـصـ لـهـ وـحـدـهـ، وـيـنـمـيـ حـسـنـ الـقـصـدـ لـهـ عـزـ وـجـلـ، وـيـحـقـقـ التـجـرـدـ لـهـ سـبـحـانـهـ، كـمـاـ فـيـ الـحـدـيـثـ

الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف، قال الله تعالى: إِلَّا الصوم فَإِنَّه لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، إِنْ تَرَكْ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي».

ولذا قال غير واحد من أهل العلم: إن الصيام لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره، وخصص الصيام؛ لأنَّه ليس يظهر من ابن آدم بفعله، وإنما هو شيء في القلب، كما ورد في الأثر «ليس في الصيام رياء».

«قال القرطبي: لما كانت الأعمال يدخلها الرياء، والصوم لا يُطلع عليه بمجرد فعله، إلا الله، فأضافه الله إلى نفسه، ولهذا قال في الحديث: «يدع شهوته من أجلي». وقال ابن الجوزي: جميع العبادات تظهر بفعلها، وقل أن يسلم ما يظهر من شوب، بخلاف الصوم».

وبتحقيق الإخلاص تحصل السلامة من السوء والفحشاء، إذ الإخلاص لله تعالى يمنع تسلط الشيطان، قال تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: 24]، فمن كان مخلصاً لله تعالى حق الإخلاص لم يزن، وإنما يزن، لخلوه من ذلك.

إن الإغراف في شهوات البطن والفرج، واعتيادها، وإلتها؛ يجعلها أسرًاً وقیداً، فتنجذب الروح إلى ذلك الانحدار والهبوط، أما إذا صام العبد إيماناً واحتساباً، فإن روحه تسمو وتعلو، فالصوم يحرر الروح من رق المللوات وأسر المألهفات.

ولطالما استحوذ على فئام من الناس التفّن في فضول المطعومات، والتکلف في تناول المأکولات والمشروبات، والمرواحة بين «المقبلات» و«المهضمات»! وفي مقابل شهوات الغيّ في البطون، كان سلفنا الصالح يتنعمون بالفرح بفضل الله وبرحمته، ولذة الأنس بالله، فرحمه الله على تلك الأرواح، لم يبقَ منهم إلا الأشباح!

وهاك ما سطره اين رجب - رحمه الله - في شأن القوم: و«نستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له».

«قيل للإمام أحمد ابن حنبل: يحدُ الرجل رقة من قلبه وهو يسبّع؟ قال: ما أرى.

ولهذا المعنى شرع الله الصيام..

واعلم أن عيش الجسد يُفسد عيش الروح وينقصه، وأما عيش الروح فإنه يُصلح عيش الجسد، وقد يغنيه عن كثير مما يحتاج إليه من عيشه.

فمن وفى نفسه حظها من عيش جسده بالشهوات الحسية؛ كالطعام والشراب؛ فسد قلبه وقسا، وجلب له ذلك الغفلة وكثرة النوم، فنقص حظ روحه وقلبه من طعام المناجاة وشراب المعرفة، فخسر خساراً مبيناً.

فالصالحون كلهم قللوا من عيش الأجساد، وكتروا من عيش الأرواح، لكن منهم من قلل عيش بدنه ليستوفيه في الآخرة، وهذا تاجر، ومنهم من فعل ذلك خوفاً من الحساب عليه في الآخرة.

والمحققون فعلوا ذلك تفريغاً للنفس عما يشغل عن الله، لتفرغ القلوب للعكوف على طاعته، وذكره وشكره، والأنس به والشوق إلى لقائه.

فما تفرغ أحد لطلب عيش الأجسام، وأعطي نفسه حظه من ذلك؛ إلا ونقص حظه من عيش الأرواح، وربما مات قلبه من غفلته عن الله، ولأعراضه عنه».

إن البشرية اليوم تكابد سعف الشهوات، وتقاسمي نكاح الاحطاط في المذميات، وتعاني شقاءً وضنكًا، بسبب الولوغ والوقوع في

تلك الدرجات، والصيام جُنّة من تلك الآفات، وشفاء من جميع الغوايات، كما قال الشيخ محمد الخضر حسين: «أوليس في الصيام رياضة النفوس وتدريبها على احتمال المكاره، والصبر عن الشهوات، حتى لا تكون أسيرة في ملاذها! وفي النفوس التي اعتادت الصبر بما تشتهي - وهو حاضر - لديها قوة وجلادة لا تجدها في النفوس التي لا تكف عن المشتهيات إلا عند فقدانها، فالصيام بحق يشفى النفوس من علة الانحطاط في الشهوات كلما عرضت».

- وفي الصيام **جهاد للنفس على ترك العوائد والمألفات**، فهو يترك طعامه وشرابه وشهوته لأجل الله وحده، وجهاد النفس هو الأصل لكل جهاد.

والجهاد من لوازم محبة الله تعالى، والله سبحانه هو المعبود المأله المحبوب المقصود، وهذه هي الحنيفة ملة إبراهيم عليه السلام، فمحبة الله أعظم الواجبات، وأصل كل الأعمال.

ثم إن الصيام إمساكٌ عن الشهوات، والغيُّ اتباع الشهوات، وأصل ذلك الغيُّ هو الحبُّ لغير الله، فتحمله محبة الشهوات على تقديمها على محبة الله، فتضيق محبته لله عز وجل، وربما أصرَّ على ذلك فسلب الإيمان بالكلية، فصار كافراً منافقاً،عكس الصائم؛ فإن محبة الله في قلبه وتتضاعف كلما ارتقى في مقامات الصيام وأحواله.

كما أن محبة الصائم لله لا تنفك عن رجائه عز وجل، والخوف منه سبحانه؛ إذ كل محبٌ راجٍ خائف، وكل محبة مصحوبة بالخوف والرجاء ضرورة، ورجاء رحمة الله وقبول صيامه وقيامه يستلزم السعي والجد في شهر الرحمات والنفحات حسب الوسع والإمكان، إذ لا يصلح ولا يصح الرجاء إلا بالعمل، وإلا كان مجرد أمانٍ عاجز مفرط.

إن الصيام يرسّخ الإيمان باليوم الآخر ويقويه، ويربط الصائم بأحوال الآخرة وهمومها، ففي روايات الحديث الصحيح «الصيام جُنّة»، جاءت رواية عن سعيد بن منصور «جنة من النار»، ولأحمد «جنة وحصن حصين من النار»، والإيمان بالآخرة يفتح باب الرجاء والخوف، والصائم يحقق الرجاء، فإن عبادة الرجاء تحت وتحدو القلوب على السير إلى الله والدار الآخرة، ونفوس الصائمين تنشط وتتسارع إلى الخيرات وتسابق إلى القربات كما هو مشاهد ومحب.

كما أن الصوم يقوى الخوف من الله، فالصائم يخاف من تقصيره وتغريبه وعدم قبول عمله، فهناك تلازم بين مجانية الشهوات والخوف من الله تعالى؛ ولذا قال بعض السلف: إذا سكن الخوف أحرق مواضع الشهوات منها.. فاللهم أعنَا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

المصادر:

مجلة البيان